١ ـ أزواج الخلفاء الراشدين الأربعة

١ ـ أزواج أبي بكر الصديق ﷺ
أول الخلفاء الراشدين، وأحد الأعمدة الأربعة للدين.

بادىء ذي بدء، لا بد لنا من معرفة اسم «أبي بكر» ونسبه، ولقبه، وأشهر مناقبه، وصلته بسيد البشر ﷺ.

قال الإمام «جلال الدين السيوطي» في كتابه «تاريخ الخلفاء»: «أبو بكر الصديق» خليفة رسول الله ﷺ، اسمه «عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب «القرشي» التيمي، يلتقي مع رسول الله ﷺ في «مُرَّة»[١]. وأمه «أم الخير»؛ سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة». قال «النووي» في «تهذيبه»: اسم «أبي بكر الصديق»: «عبد الله» هو الصحيح المشهور، وقيل: اسمه: «عتيق»، والصواب الذي عليه كافة العلماء: أن «عتيقاً» لقبٌ له لا اسم، ولُقِّبَ «عتيقاً» لعتقه من النار، كما ورد في حديث رواه الترمذي. وقيل: لِعَتَاقة وجهه ـ أي: حسنه وجماله ـ قال: «مصعب بن الزبير» و«الليث بن سعد»، وجماعة، وقيل: لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به[٢].

وأخرج «أبو يعلى» في مسنده، «وابن سعد» و«الحاكم» وصححه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: والله! إني لفي بيتي ذات يوم، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الفِناء، والستر بيني وبينهم، إذ أقبل «أبو بكر»، فقال النبي ﷺ: «**من سَرَّه أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى «أبي بكر»**، وإن اسمه الذي سماه أهله

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣١.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٨١).

«عبد الله»، فغلب عليه اسم «عتيق».

وأخرج الترمذي والحاكم عن «عائشة» رضي الله عنها أن «أبا بكر» دخل على رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أبا بكر! أنت عتيق الله من النار**»، فمن يومئذٍ سمي «عتيقاً».

وأما «الصديق» فقيل: كان يلقَّب به في الجاهلية، لما عرف منه من الصدق، ذكره ابن مسدي، وقيل: لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به. قال ابن إسحاق، عن الحسن البصري، وقتادة: وأول ما اشتهر به صبيحة الإسراء.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» عن عائشة» رضي الله عنها ، قالت: جاء المشركون إلى «أبي بكر»، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق، إني لأصدقه بأبعد من ذلك بخبر السماء غدوة وروحة، فلذلك سمي «الصديق»، ـ إسناده جيد ـ ، وقد ورد ذلك من حديث أنس، وأبي هريرة، أسندهما ابن عساكر، وأم هانىء، أخرجه الطبراني.

قال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب مولى «أبي هريرة»، قال: لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به، فكان بذي «طُوًى»، قال: «**يا جبريل! إن قومي لا يصدقوني**»، قال: يصدقك «أبو بكر»، وهو «الصديق»، وأخرجه الطبراني في الأوسط موصولاً عن أبي وهب، عن أبي هريرة.

وأخرج الدارقطني، والحاكم، عن أبي يحيى، قال: لا أحصي، كم سمعت «علياً» يقول على المنبر: إن الله سمى «أبا بكر» على لسان نبيه «صدِّيقاً»[1].

وكان «أبو بكر» رضي الله عنه صَدِيقاً لرسول الله ﷺ من أيام الجاهلية، وقد حَرَّم الخمر على نفسه منذئذٍ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، على مبغضه اللعنة. فقد روي السيوطي، عن ابن عساكر، عن أبي العالية الرياحي، قال: قيل لأبي بكر الصديق، في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت الخمر في

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

الجاهلية؟ فقال: أعوذ بالله، فقيل: ولِمَ؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان وضيعاً في عِرْضِه ومروءته، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدق أبو بكر، صدق أبو بكر**» مرتين. مرسل غريب سنداً ومتناً[١].

فلما حمل رسول الله ﷺ رسالة الإسلام، كان «أبو بكر» أول من دعاه إلى الله، فلم يتلكَّأ، ولم يتردد، حتى لَبَّاه رضي الله عنه وأرضاه، ذلك لأن ثقته بالله وبرسوله ﷺ ليس لها حدود، ولا غرو فقد كان رسول الله ﷺ يدعى في الجاهلية «الصادق الأمين».

وقد أخرج الطبراني في الكبير، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، عن الشعبي، قال: سألت ابن عباس: أيُّ الناس كان أول إسلاماً؟ قال: «أبو بكر الصديق»، ألم تسمع قول «حسان»:

إذا تـذكَّـرْتَ شـجـواً مـن أخـي ثـقـةٍ ... فـاذكـر أخـاك أبـا بـكـر بـمـا فَـعَـلا
خـيـر الـبـريـة أتـقـاهـا وأعـدلـهـا ... إلا الـنـبـي وأوفـاهـا بـمـا حَـمَـلا
والـثـاني الـتـالـي الـمـحـمـود مـشـهـده ... وأول الـنـاس مـنـهـم صـدَّق الـرُّسُـلا

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الحصين التيمي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام، إلا كانت له عنه كبوة وتردُّد ونظر، إلا «أبا بكر» ما عَتَّم عنه حين ذكرته، وما تردَّد فيه**» عَتَّم: لبِثَ وأبطأ[٢].

وأما عن مناقبه فيعزُّ حصرها، ويضيق القرطاس بذكرها، فهو في الجود والكرم أسخى الناس بعد رسول الله ﷺ، ووقف نفسه وماله في سبيل الله، ونصرة رسوله ﷺ وتجهيز السرايا والبعوث، فقد أخرج ابن عساكر، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أجد عندي أعظم يداً من أبي بكر، واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته**».

وأخرج أبو داود والترمذي، عن «عمر بن الخطاب» قال: أمرنا رسول الله ﷺ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٥.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٦ ـ ٣٧.

أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق «أبا بكر»، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، وأتى «أبو بكر» بكل ما عنده، فقال: «**يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحد عندنا يد إلَّا وقد كافأناه إلا «أبا بكر»، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر**»[1].

وكان أعلم الناس بأنساب العرب، لاسيما قريش، وكان أقرأ الصحابة ـ أعلمهم بالقرآن ـ وأعلمهم بالسنة، فقد أخرج الترمذي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي لقوم فيهم «أبو بكر» أن يؤمهم غيره**».

وأخرج ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن شيخ من الأنصار، قال: كان «جبير بن مطعم» من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذتُ النسب من «أبي بكر الصديق»، وكان «أبو بكر الصديق» من أنسب العرب[2].

وقال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: وكان «الصديق» مع ذلك غاية في علم تعبير الرؤيا، وقد كان يعبر الرؤيا في زمن النبي ﷺ، وقال محمد بن سيرين، ـ وهو المقدم في هذا العلم بالاتفاق ـ: كان «أبو بكر» أعبر هذه الأمة بعد النبي ﷺ، أخرجه ابن سعد.

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» وابن عساكر، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أؤول الرؤيا، وأن أعلمها أبا بكر**».

وقال الزبير بن بكار: سمعت بعض أهل العلم يقول: أفصح خطباء أصحاب رسول الله ﷺ «أبو بكر الصديق» و«علي بن أبي طالب» رضي الله عنهما.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٤١.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٤٣.

ومن الدلائل على أنه أعلم الصحابة، حديث صلح الحديبية، حين سأل «عمر» رسول الله ﷺ عن ذلك الصلح، وقال: علام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فأجابه النبي ﷺ، ثم ذهب إلى «أبي بكر»، فسأله عما سأل رسول الله ﷺ فأجابه كما أجابه النبي ﷺ سواء بسواء، أخرجه البخاري وغيره.

وكان مع ذلك أَسَدَّ الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً[1].

وكفى «الصديق» من الفخار، أنه كان ثاني اثنين إذ هما في الغار، وحين وعك رسول الله ﷺ، ولم يستطع الخروج إلى الصلاة ليؤم المسلمين، أمروا «أبا بكر» فأمَّهم.

وكان يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، فقد دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليستبرئه له من أي شيء ضار، حتى إنه مزَّق ثوبه مزقاً، وراح يسد بها جحور الغار، فبقي جُحْر واحد لم يجد ما يسده به، فسدَّه بقدمه، وكان رسول الله ﷺ قد نام ووضع رأسه على فخذ «أبي بكر»، وكان في الجحر ثعبان فلدغ «أبا بكر» مراراً عديدة، وهو صابر لا يتحرك لمكان رسول الله ﷺ منه، رضي الله تعالى عنه.

وأظهر حنكة بالغة يوم تصدى للمرتدين، وقمع فتنتهم، وقطع دابرهم، وقد ألهمه الله تعالى السداد حين أصرَّ على قتالهم، على الرغم من مخالفة العديد من الصحابة لرأيه، ثم تبيَّن لهم بعد ذلك أن الحق كان معه، فظهر على أهل الردة، ولله الحمد والمِنَّة.

ومن أعظم مناقبه جمع القرآن بناء على اقتراح «عمر» ﷺ بعد أن استشهد يوم اليمامة، عدد كبير من القرّاء، وإنفاذه جيش «أسامة بن زيد» الذي عقد له لواءه رسول الله ﷺ قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى، ورفضه الاستجابة لرغبة بعض الصحابة بتأمير بديل لأسامة لحداثة سنه.

وكيف لي أن أعدد خصال «أبي بكر» الحميدة، ومآثره المجيدة؟ وقد أخرج ابن عساكر، عن صدقة القرشي، عن رجل، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خصال**

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٤٣ ـ ٤٤.

الخير ثلاثمائة وستون»، فقال «أبو بكر»: «يا رسول الله، لي منها شيء؟ قال: **«كلها فيك، فهنيئاً لك يا أبا بكر!»**[١].

وأما عن شجاعة «أبي بكر» فإنه أشجع الصحابة ـ ﷺ ـ فقد أخرج البزار في مسنده عن «عليٍّ» أنه قال: أخبروني، من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلَّا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: «أبو بكر»، إنه لما كان يوم بدر، فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله! ما دنا منا أحد إلا «أبو بكر» شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، فهو أشجع الناس.

قال «عليٌّ» ﷺ: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يجبؤه، وهذا يتلتله ـ أي: يسوقه بعنف ويدفعه ـ، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلٰهاً واحداً؟ قال: فوالله! ما دنا منا أحد إلَّا «أبو بكر» يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم رفع «عليٌّ» بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم «أبو بكر؟» فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله! لساعة من «أبي بكر» خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[٢].

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه أسماء نساء «أبي بكر الصديق» ﷺ، قال: حدث علي بن محمد، عمن حدثه ومن ذكرت من شيوخه، قال: تزوج «أبو بكر» في الجاهلية «قُتَيْلَة» ـ ووافقه على ذلك الواقدي والكلبي ـ قالوا: وهي «قتيلةُ ابنة عبد العُزَّى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي» فولدت له «عبد الله وأسماء».

وتزوج أيضاً في الجاهلية «أم رومان بنت عامر بن عَمِيرة بن ذهل بن دهمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة».

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٥٦.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨ ـ ٣٩.

وقال بعضهم: هي «أم رومان بنت عامر بن عُوَيْمر بن عبد شمس بن عَتَّاب بن أُذَيْنَة بن سُبَيْع بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة» فولدت له «عبد الرحمٰن» و«عائشة». فكل هؤلاء الأربعة من أولاده، ولدوا من زوجتيه اللتين سميناهما في الجاهلية.

وتزوَّج في الإسلام «أسماء بنت عميس» وكانت قبله عند «جعفر بن أبي طالب» وهي «أسماء بنت عميس بن مَعْد بن تَيْم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن مالك بن نَسْر بن وهب الله بن شَهْران بن عِفْرِس بن حَلْف بن أَفْتَل ـ وهو خَثْعم ـ فولدت له «محمد بن أبي بكر» ـ.

وتزوج أيضاً في الإسلام «حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير» من بني الحارث بن الخزرج»، وكانت نَسْأً ـ النَّسْءُ: المرأة التي يظن بها الحمل، وقيل: التي ظهر حملها ـ حين توفي «أبو بكر»، فولدت له بعد وفاته جارية سميت «أم كلثوم»[1].

أولاً: أما «قُتَيْلَة» فقد نسبها «ابن حِجر العسقلاني» في «الإصابة» فقال:

«قَتْلَة» وقيل: بالتصغير ـ بنت عبد العُزَّى بن سعد بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي، القرشية العامرية، والدة «أسماء بنت أبي بكر» وشقيقها «عبد الله» كذا نسبها الزبير وغيره.

وقال أبو موسى في «الذيل»: قتيلة بنت سعد بن عامر بن لؤي: كذا اختصر النسب، وحذف منه جماعة، ثم قال: أوردها المستغفري في الصحابيات، وقال: تأخر إسلامها، وسماها الحاكم «أبو أحمد» في الكنى.

وحديثها عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم، فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أصلها... الحديث، وهو في الصحيح، وفي بعض طرقه: وهي راغبة.

قال أبو موسى: ليس في شيء من الروايات ذكر إسلامها، وقولها: «راغبة»

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

ليست تريد في الإسلام، بل في الصلة، ولو كانت مسلمة، لما احتاجت «أسماء» أن تستأذن في صلتها، إلا أن تكون أسلمت بعد ذلك.

قلت: إن كانت عاشت إلى الفتح، فالظاهر أنها أسلمت[١].

ولم يذكرها «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب».

وفي رواية البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم، مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صليها»[٢].

وقيل: إن «أبا بكر» ﵁ طلَّق «قتيلة» في الجاهلية، ولا تعرف أخبارها بعد فراقه لها.

وأما ولداه «عبد الله» و«أسماء» من «قتيلة» فقد أسلما ثم هاجرا إلى المدينة بعد أن أذن رسول الله ﷺ إلى أصحابه الهجرة إليها.

وكان لعبد الله بن أبي بكر الصديق ﵄ دور بارز عشية هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة مع صاحبه «أبي بكر» ﵁.

فقد أوى رسول الله ﷺ و«أبو بكر» ﵁ إلى غار ثور، ومكثا فيه ثلاثاً حتى ينقطع عنهما طلب قريش التي رصدت جائزة قدرها مائة ناقة لمن يأتيها بهما، فكان «عبد الله بن أبي بكر» يأتيهما حين يمسي بكل خبر بمكة، ثم يصبح بمكة، فلا يفطن له أحد من أهلها ـ وعند ابن سعد في الطبقات[٣] سماه «الحارث بن سخبرة» ـ.

ثانياً: وكان «عبد الله بن الحارث بن سخبرة» الأزدي قد تزوج في الجاهلية من «أم رومان» واسمها «زينب» وقيل: «دعد»، بَيْدَ أن لقب «أم رومان» غلب على اسمها فعرفت به، وكانت لزوجها مكانة مرموقة في قومه، وأنجبت له «أم

(١) الإصابة (٤/ ٢٦١١).
(٢) صحيح البخاري (٣٠١٢).
(٣) انظر الإصابة (٤/ ٢٦٩٢) والطبقات (٨/ ٢٠٢) والاستيعاب (٨/ ١٩٣٦).

رومان» ولده «الطفيل بن الحارث»، وكانت الأسرة تقطن السَّرَاة من جزيرة العرب، ثم خرج «الحارث» بأهله إلى مكة المكرمة، وعزم على المقام فيها، لكن كان عليه أن يحالف أحد زعمائها، ويدخل في جواره ليتسنَّى له الوصول إلى غايته، ووجد «الحارث» ضالَّته في «أبي بكر الصديق» ﷺ، فتحالفا.

ولم يمضق طويل وقت حتى مرض «الحارث» ثم وافاه الأجل.

وكانت الأعراف السائدة في الجاهلية تقتضي المبادرة إلى الزواج من أرملة الميت، وفي ذلك تكريم له وصون لأسرته.

ولما حَلَّت «أم رومان» خطبها «الصديق» ﷺ وتزوجها، وأصبحت مع ابنها «الطفيل» في كنفه، وأنجبت لأبي بكر «عائشة بنت أبي بكر» وأخاها «عبد الرحمٰن بن أبي بكر».

ولكن، أية امرأة كانت «أم رومان؟» إنها إحدى الفرائد الحسان، وقد شبَّهها النبي المصطفى العدنان، بحور الجنان، حيث قال: «**من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان**»[1]. ولم تكن تدري أنها ستصبح حماة حبيب الرحمٰن ﷺ. وذات يوم أشرقت شمسُه، وأفل نحسُه، خرج «أبو بكر» من بيته على عادته، ولم يطل غيابه إلا قليلاً حتى عاد ووجهه يزينه البشر والضياء، حاملاً لأهله الخير والهناء.

أي شيء دهاك يا أبا بكر!؟ لقد اعتدت على رؤيتك فرحاً مسروراً، وبالسعادة مغموراً، ولكنك اليوم لست كعهدي بك من قبل، فهلا أخبرتني بسر سرورك، ولِمَ أسرعت في حضورك؟

أجل، يا أم رومان! لقد جئتك بخيري الدنيا والآخرة، وقد أعلمني صاحبي أن الوحي قد نزل عليه، ومعه رسالة الإسلام، فلما دعاني إلى الله لم أتردد قيد أُنمُلَة، فاتبعته وصدقته، وآمنت بما جاء به.

قالت: وأي واحد من أصحابك هو؟ عساه أن يكون الصادق الأمين!

---

(١) كنز العمال (٣٤٤١٨).

قال: إنه هو، لأنني لم أصحب أصدق منه قيلاً، ولا أقوم سلوكاً، فهلمي بَنيَّ جميعاً حتى أنظر ما أنتم فاعلون.

وجاؤوا أباهم يُهْرَعُون، فلما أخبرهم بإيمانه، كانوا أَطْوَعَ له من بنانه، وآمنت «أم رومان» و«عائشة» و«أسماء» و«عبد الله»، وأبى «عبد الرحمٰن» قبول دعوة أبيه، الأمر الذي أحفظه عليه، وشَقَّت على «أبي بكر» مخالفة ولده، وفِلْذَة كبده، لمكانه من رسول الله ﷺ، ووثوق صلته به.

ولما ناصبت قريش أتباع الدين الجديد العداوة والبغضاء أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى بلاد الحبشة ليعبدوا الله على أرض ملكها الذي لا يظلم عنده أحد، فكانوا في خير دار، عند أكرم جار.

ثم عاد بعض المهاجرين إلى مكة، وكان منهم فارس الإسلام، وبطله المقدام، «الزبير بن العوام»، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ «صفية بنت عبد المطلب».

وجاء «الزبير» إلى «أبي بكر» يخطب عليه ابنته الكبرى «أسماء» فأنكحه إياها، وكانت قريش قد أسرفت في نكالها بالمسلمين الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى الحبشة، حتى ألجأتهم مع بعض المشركين إلى شعب «أبي طالب»، وكتبت عليهم صحيفة جائرة ظالمة، تمنعهم بموجبها بيع وشراء الطعام والشراب منهم وإليهم، وكذلك منعتهم النكاح منهم وإليهم، واستمر ذلك الحصار الغاشم ثلاث سنوات، ثم تنادى بعض العقلاء من قريش لِتمزيق الصحيفة وفك الحصار، فخرج الناس من الشعب متعبين مكدودين، ووقع «أبو طالب» فريسة المرض، ولم يلبث حتى تَدَهْوَرَت صحته، ورجا رسول الله ﷺ أن يحصل منه على كلمة التوحيد حتى يُحَاجَّ بها له عند ربه، وقال له: «قل: **لا إله إلا الله**» فأبى ومات على شركه، وبرحيله زادت قريش من وطأتها على رسول الله ﷺ ونالت منه ما لم تستطع أن تناله في حياة عمه «أبي طالب» لأنه منعه منهم. وبعد أيام قلائل، حضرت الوفاة أم المؤمنين السيدة «خديجة بنت خويلد» فحزن رسول الله ﷺ أشد الحزن، وفقد برحيلها الوزير بعد أن فقد برحيل عمه «أبي طالب» النصير، وسمي عام رحيلهما عام الحزن.

وخلا البيت النبوي من عبق «الطاهرة» الحبيبة «خديجة» وغاب الدفء والحنان من أرجائه، وعرت نفس الحبيب الأعظم كآبة وأسى لم تستطع قريش أن تبلغهما منه، ذلك أن بسمة من شفتي «خديجة» ولمسة من يدها الحانية كانتا تكفيان لسُلُوِّ كل ما يلقاه من سفهاء قريش، ونسيان إيذائهم له.

ولكن، ما كان الله ليدع حبيبه حزيناً، فقضت مشيئته أن يخرجه من عزلته، فوجَّه إليه امرأة أحد صحابته الأبرار لتكلمه بصدد الزواج.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه، الحديث الذي دار بين رسول الله ﷺ وامرأة صاحبه، وما نجم عنه من خير فاض على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فقال: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن عمرو، قال: حدثنا يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب، عن عائشة، قالت: لما توفيت «خديجة»، قالت «خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص» امرأة «عثمان بن مظعون» وذلك بمكة: أيْ رسول الله! ألا تز ج؟ فقال: «**ومَنْ؟**» فقالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: «**فمن البكر؟**» قالت: ابنة أحب الخلق إليك «عائشة بنت أبي بكر»، قال: «**ومن الثيب؟**» قالت: «سودة بنت زمعة بن قيس»، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه، قال: «**فاذهبي، فاذكريهما علي**».

فجاءت ودخلت بيت «أبي بكر»، فوجدت «أمَّ رومان» ـ «أُمَّ عائشة» ـ، فقالت: أيْ أُمَّ رومان! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة». قالت: وددت! انتظري «أبا بكر» فإنه آتٍ، فجاء «أبو بكر»، فقالت: يا أبا بكر! ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة»، قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه!

فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له ذلك، فقال: «**ارجعي إليه، فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي**»، فأتت «أبا بكر» فذكرت ذلك له، فقال: انتظريني حتى أرجع.

فقالت: «أم رومان»: إن «المطعم بن عدي» كان ذكرها على ابنه، ولا والله! ما وعد شيئاً قط فأخلف، فَدَخل «أبو بكر» على «مطعم»، وعنده امرأته أم

ابنه الذي كان ذكرها عليه، فقالت العجوز: يابن أبي قحافة! لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تُصْبِئَه ـ ترده عن دينه ـ وتدخله في دينك الذي أنت عليه!

فأقبل على زوجها «المطعم»، فقال: ما تقول هذه؟ فقال: إنها تقول ذاك. قال: فخرج «أبو بكر»، وقد أذهب الله العِدَةَ التي كانت في نفسه من عِدَتِهِ التي وعدها إياه، وقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فجاء، فأنكحه، وهي يومئذ ابنة ست سنين[1].

ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة، وهي يوم بني بها ابنة تسع سنين، وأما «سودة بنت زمعة» رضي الله عنها ـ فقد بنى بها بمكة.

وخرج رسول الله ﷺ ومعه «أبو بكر» رضي الله عنه من الغار، واتخذا طريقهما إلى المدينة، وكان بصحبتهما «عامر بن فهيرة» مولى «أبي بكر» ودليل مشرك يدلهم على الطريق يدعى «عبد الله بن أريقط»، واسْتُقْبِلَ الموكب النبوي في المدينة أروع استقبال أعده الأنصار لأَعَزِّ الضيوف.

وقد روى محمد بن إسحاق، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ و«أبو بكر» أتانا نفر من قريش، فيهم «أبو جهل بن هشام»، فوقفوا على باب «أبي بكر»، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوكِ يابنة أبي بكر!؟ قلت: لا أدري والله! أين أبي!

قالت: فرفع «أبو جهل» يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قُرْطي.

قالت: ثم انصرفوا ومكثنا ثلاث ليالٍ، لا ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن، من أسفل مكة، يغني بأبيات من الشعر غناء العرب، والناس يتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة، وهو يقول:

جَزَى اللهُ ربُّ الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتيْ أم مَعْبَدِ
هما نزلاها بالهدى واغتدوا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمَّدِ
لِيَهْدِ بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمَرْصَدِ

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٦٢).

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وَجَّهَ رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، و«أبو بكر» و«عامر بن فهيرة» و«عبد الله بن أريقط» دليلهما[1].

ونزل رسول الله ﷺ بالمدينة على «أبي أيوب الأنصاري؛ خالد بن زيد»، ونزل «أبو بكر» ﷺ على «خُبَيْب بن أساف» وقيل: على «خارجة بن زيد بن أبي زهير» بالسُّنح الذي زوَّجه ابنته «حبيبة بنت خارجة» فيما بعدُ.

ولما استَقَرَّ المُقَامُ برسول الله ﷺ وبأبي بكر في المدينة، بعث رسول الله ﷺ إلى بناته وامرأته «سودة بنت زمعة» مولييه «زيد بن حارثة» و«أبا رافع» فحملاهُنَّ من مكة إلى المدينة.

وحين رجع «عبد الله بن أريقط» إلى مكة أخبر «عبد الله بن أبي بكر» بمكان أبيه «أبي بكر»، فخرج «عبد الله» بعيال أبيه إليه، وصحبهم «طلحة بن عبيد الله»، معهم «أم رومان» وهي «أم عائشة»، و«عبد الله بن أبي بكر» حتى قدموا المدينة. وفي شهر شوال من السنة الأولى بنى رسول الله ﷺ بعائشة ﵂ وكانت تستحب أن يبنى بالنساء في شوال.

وهاجرت «أسماء بنت أبي بكر» إلى المدينة، وهي حامل، ولما وضعت «عبد الله بن الزبير» ﵄ تكنَّت «عائشة» ﵂ به لأنه ابن أختها، فصار يقال لها «أم عبد الله»، قال ذلك لها رسول الله ﷺ.

وكانت «أم رومان» خير ما رُزِقَه «أبو بكر» ﷺ، فهي المرأة الصالحة التي عناها الحديث الشريف، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا أقسم عليها أبرته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله، وإذا كانت المرأة لها هذه الصفات، فلا غرو أن تكون أَفْضَل المربيات، وقد أهدت لرسول الله ﷺ أحبَّ الزوجات، وللمؤمنين أعظم الأمهات، ولكنها لم تسلم من كيد المرجفين، وتخرّص المنافقين، فاختلقوا لها إفكاً عظيماً، وسَبَّبوا لها عذاباً أليماً، حين اتهموا أطهر النساء في عفتها، وأرادوا النيل من سمعتها، غير مبالين بحسن

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

تربيتها، ولم يكن في وسع أم المؤمنين، إلَّا تفويض أمرها لرب العالمين، الذي تعهد بنصرة المظلومين، وإنصافهم ولو بعد حين، وما كان الله ليتخلى عن أشرف شريفة، وأعف عفيفة، اختارها زوجاً لسيد أحبابه، وأكرمهم على جنابه.

ولئن برئت ساحة «مريم البتول» على لسان ابنها، وشهد على كذب امرأة العزيز شاهد من أهلها، فإن العلي الكبير القدير، تصدى بنفسه لهذا الاتهام الخطير، وشدَّد على مقترفيه الوعيد والنكير، فأصدر البراءة من علياء سمائه، وأقر عين خير أنبيائه، وكشف الغمة عن المطهرة العصماء، التي لم تحظ بمناقبها أي من النساء، وها هي ذي قصة الإفك التي رواها الإمام «أبو عبد الله البخاري؛ محمد بن إسماعيل» في صحيحه الجليل، قال:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، قال: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيَّب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها؛ زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصاً ـ أي: أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث ـ، وقد وعيتُ عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن «عائشة»، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا: قالت «عائشة»: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت «عائشة»: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزِل الحجاب، فكنت أُحْمَلُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمتُ حين آذَنوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارِ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون لي، فاحتملوا هودجي فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه.

وكانت النساء، إذ ذاك خِفافاً لم يُهَبَّلْنَ ـ لم يَسْمَنَّ ـ، ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ،

إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام ـ أي: ما يتبلَّغ به ـ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبَعَثوا الجملَ فساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيشُ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب. فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المُعَطَّل» السُّلَميُّ ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله! ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة ـ أي: داخلين في وقت شدة الحر ـ، وهم نُزُولٌ.

قالت: فهلك فيَّ مَنْ هلك، وكان الذي تولَّى كِبْرَ الإفك «عبد الله بن أبي ابن سلول» قال «عروة»: أُخبِرتُ أنه كان يشاعُ ويُتَحدَّثُ به عنده، فيُقِرُّه ويستمعه ويستوشيه ـ أي: يطلب ما عند المتحدث ليزيد منه ـ.

وقال «عروة» أيضاً: لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلَّا «حسان بن ثابت»، و«مِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ» و«حَمْنَةُ بنت جحش»، في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى، وإنَّ كُبْرَ ذلك يقال له: «عبد الله بن أبي ابن سلول».

قال «عروة»: كانت «عائشة» تكره أن يُسَبَّ عندها «حسانُ»، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعِرْضي لِعِرْضِ محمَّدٍ منكم وِقاءُ

قالت «عائشة»: فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، «إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيُسَلِّم، ثم يقول: «كيف تِيكُمْ؟»» ـ اسم إشارة للمؤنث ـ، ثم ينصرف، فذلك يَريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نَقَهْتُ ـ

أي: أفقت من المرض ـ، فخرجتُ مع «أم مِسْطَح» قِبَلَ المناصع ـ مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها ـ، وكان مُتَبَرَّزَنَا، وكنا لا تخرج إلَّا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا. قالت: وأُمرنا أَمْرُ العرب الأُوَل في البرِّيَّة قِبَلَ الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

قالت: فانطلقتُ أنا و«أُمُّ مِسْطَحٍ»، وهي ابنة «أبي رُهْم بن المُطَّلب بن عبد منافٍ» وأمها «بنت صخر بن عامر» خالةُ «أبي بكر الصديق»، وابنها «مِسْطَحُ بن أُثاثة بن عَبَّاد بن المُطَّلب»، فأقبلتُ أنا و«أُمُّ مِسْطَحٍ» قِبَلَ بيتي حين فرغنا مِنْ شأنا، فعثرت «أم مِسْطَح» في مِرْطِهَا، فقالت: تَعِسَ «مِسْطَحٌ»، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أيْ هَنْتاهْ! ـ أي: يا هذه! ـ أولم تسمعي ما قال؟

قالت: وقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

قالت: فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم قال: «كيف تِيكُمْ؟»، فقلت له: أتأذن لي أن آتيَ أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قِبلِهِمَا.

قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمَّتاهُ! ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية! هَوِّني عليك، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلَّا أكثرن ـ عليها ـ أي: أكثرن القول الرديء عليها ـ.

قالت: فقلت: سبحان الله! أو لقد تحدث الناس بهذا؟

قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ـ أي: لا يسكن ولا ينقطع ـ ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتُ أبكي.

قالت: ودعا رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» و«أسامة بن زيد» حين استلبث الوحي ـ أي: أبطأ ـ، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما «أسامة» فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال «أسامة»: أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما «عليٌّ» فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجاريةَ تَصْدُقْك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ «بَرِيرَةَ»، فقال: «أيْ بَرِيرَةُ! هل رأيتِ من شيءٍ

يَريبكِ؟»، قالت له«بَرِيرَة»: والذي بعثك بالحق! ما رأيت عليها أمراً قط أَغْمِصُه ـ أي: أعيبه ـ أكثرَ من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن ـ الشاة ـ فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من «عبد الله بن أبي»، وهو على المنبر، فقال: «**يا معشر المسلمين! من يعذِرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله! ما علمتُ على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلَّا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلَّا معي**».

قالت: فقام «سعد بن معاذ» أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله! أعذِرك، فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت «أمُّ حسانَ» بنتَ عمِّه من فخذه، وهو «سعد بن عبادة» وهو سيد الخزرج.

قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّة، فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ اللهِ لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل.

فقام «أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، وهو ابن عم «سَعْدٍ»، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لَعَمْرُ اللهِ لنقتلَنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: فثار الحَيَّانِ الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم، حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيتُ يومي ذلك كُلَّه لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، ولا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا، فَسَلَّم، ثم جلس،

قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: **«أمَّا بعد، يا عائشة! إنه بَلَغَني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبَرِّئك اللهُ، وإن كنتِ ألممتِ بذنب، فاستغفري اللهَ وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب، تاب الله عليه»**.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أُحسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أَجِبْ رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ـ إني والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر، واللهُ يعلم أني منه بريئة، لَتُصَدِّقُنِّي، فوالله! لا أجد لي ولكم مثلاً إلاَّ «أبا يوسف» حين قال: قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٨]، ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشي، واللهُ يعلم أني حينئذٍ بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله! ما كنت أظن أن اللهَ مُنْزِلٌ في شأني وحياً يُتْلَى، لَشَأْنِي في نفسي كان أَحْقَرَ مِنْ أنْ يتكلم اللهُ فِيَّ بأَمْرٍ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني اللهُ بها، فوالله! ما رام رسول الله ﷺ مجلسَه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنْزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء ـ الشدة ـ، حتى إنه ليتحدَّر منه من العَرَق مثلُ الجمان، وهو في يوم شات، من ثِقَلِ القول الذي أنزل عليه.

قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلَّم بها أن قال: **«يا عائشة! أمَّا اللهُ فقد برأكِ»**.

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلتُ: والله! لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ﷻ.

قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النُّور: ١١ ـ ٢٠] العشر آيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي.

فقال «أبو بكر الصديق» ـ وكان ينفق على «مِسطح بن أثاثة، لقرابته منه

وفقره ـ : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ . . .﴾ [النور، الآية: ٢٢].

فقال «أبو بكر الصديق»: بلى والله! إني لأحب أن يغفر الله لي، فرَجَع إلى «مِسْطَحٍ» النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أَنْزِعها منه أبداً.

قالت «عائشة»: وكان رسول الله ﷺ سأل «زينب بنت جحش» عن أمري، فقال لزينب: «**ماذا علمتِ، أو رأيتِ؟**»، فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله! ما علمتُ إلا خيراً.

قالت: «عائشة»: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها اللهُ بالورع، قالت: وطفقت أختُها «حَمْنَةُ» تحارِبُ لها، فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط.

ثم قال «عروة»: قالت: «عائشة»: والله! إن الرجل الذي قيل له ما قيل، لَيَقُول: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده! ما كشفتُ من كَنَفِ أنثى قط، قالت: ثم قُتِلَ بعد ذلك في سبيل الله[1].

وروى البخاري أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو ، عن حصين، عن أبي وائل، قال: حدثني مسروق بن الأجدع، قال: حدثتني «أم رومان» وهي «أم عائشة» ﵂، قالت: بينا أنا قاعدة أنا و«عائشة» إذ وَلَجَتِ امرأة من الأنصار، فقال: فعل الله بفلان وفعل، فقالت «أم رومان»: وما ذاك؟ قالت: ابني فيمن حَدَّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا.

قالت: «عائشة»: سمع رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم، فخرَّت مغشياً عليها، فما أفاقت إلَّا وعليها حُمَّى بنافض، فطرحتُ عليها ثيابها فغطَّيتُها، فجاء النبي ، فقال: «**ما شأن هذه؟**»، قلت: يا رسول الله! أخذتها الحمى بنافض، قال: «**فلعل في حديث تُحُدِّث به**»، قالت: نعم، فقعدت «عائشة» فقالت: والله! لئن حلفتُ لا تصدقونني، ولئن قلتُ لا تَعْذِرونني، مَثَلي ومثلُكم كيعقوب وبنيه: (والله المستعان على ما تصفون).

---

(١) صحيح البخاري (٣٩١٠).

قالت: وانصرفت ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عذرها، قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك[١].

لماذا أسرفتَ يا رأس المنافقين، في إيذاء رسول رب العالمين؟ وهو الذي نهى فِلْذَة كبدك عن قتلك، وكان في قتلك راحة للمسلمين.

لماذا افتريت على ربة العفاف والطهر، وسببت لها الألم والقهر؟ وهي أم للمؤمنين، وخيرة الله من النساء لسيد المرسلين.

ماذا فعَل لك «أبو بكر» و«أم رومان» حتى قابلتهم بأعظم بهتان؟ لقد ارتقيت مرتقى ظلامه حالك، وسلكت سبيلاً وعرة المسالك، وما ذاك إلا لسوء نيتك، وفساد طويتك، وأحسب أنك في الآخرة من الهالكين، فَلَكَ الدرك الأسفل من النار مع المنافقين، وسائر أعداء الله والدين.

واختلف أهل السير في وفاة «أم رومان» رضي الله عنها، وقد أفاض «ابن حجر العسقلاني» في «الإصابة» بذلك فقال: (وقال ابن سعد: توفيت في عهد النبي ﷺ في ذي الحجة سنة ست، ثم أخرج عن «عفان» و«زيد بن هارون» كلاهما، عن حماد، عن علي بن زيد، عن القاسم بن محمد، قال: لَمَّا دُلِّيَتْ «أم رومان» في قبرها، قال النبي ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان**» وقال أبو عمر: توفيت «أم رومان» في حياة النبي ﷺ، وذلك في سنة ست من الهجرة، فنزل النبي ﷺ قبرها واستغفر لها، وقال: «**اللهم! لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك**».

قال أبو عمر: كانت وفاتها فيما زعموا في ذي الحجة سنة أربع أو خمس عام الخندق.

وقال ابن الأثير: سنة ست، وكذلك قال الواقدي: في ذي الحجة سنة ست، وتعقَّب ابن الأثير من زعم أنها ماتت سنة أربع أو خمس، لأنه قد صَحَّ أنها كانت في الإفك حية، وكان الإفك في شعبان سنة ست.

قلت: ـ ابن حجر ـ لم يتفقوا على تاريخ الإفك، فلا معنى للتوهم بذلك،

---

(١) صحيح البخاري (٣٩١٢).

والخبر الذي ذَكَرَ «ابن سعد»، وأخرجه «البخاري» في تاريخه، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، عن القاسم بن محمد، قال: لَمَّا دُلِّيَتْ «أم رومان» في قبرها، قال رسول الله ﷺ: «**من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى هذه**»، ومنهم من زاد فيه: عن القاسم، عن أم سلمة، وقال البخاري بعد تخريجه: فيه نظر، وحديث مسروق أسند، يعني الذي أخرجه هو من طريق حصين، عن مسروق، عن أم رومان.

وقال «أبو نعيم الأصبهاني»: قيل: إنها ماتت في عهد رسول الله ﷺ وهو وهم، وقال في موضع آخر: بقيت بعد النبي ﷺ دهراً.

وقال إبراهيم الحربي: سمع «مسروق» من «أم رومان» وله خمس عشرة سنة.

قلتُ: ـ ابن حَجَر ـ ومقتضاه أن يكون سمع منها في خلافة «عمر» لأن مولده سنة إحدى عشرة من الهجرة، وردَّ ذلك «الخطيب» في المراسيل»، فقال بعد أن ذكر الحديث الذي أخرجه البخاري، فوقع فيه عن مسروق: حدثتني «أم رومان»، فذكر طرفاً من قصة الإفك: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير حُصَيْن، ومسروق لم يدرك «أم رومان»، يعني: أنه إنما قدم من اليمن بعد وفاة النبي ﷺ، فوهم حُصَيْن في قوله: حد ، إلَّا أن يكون بعض النَّقَلَةِ كتب «سئلت» بألف، فصارت «سألت»، وتحرَّفت الكلمة، فذكرها بعض الرواة بالمعنى، فعبَّر عنها بلفظ: حدثتني، على أن بعض الرواة رواه عن حُصَيْن بالعنعنة، قال الخطيب: وأخرج «البخاري» في «التاريخ» لما وقع فيه عن مسروق: سألت «أم رومان»، ولم يظهر له عِلَّتَه.

قلت: ـ ابن حَجَر ـ بل عرف «البخاري» العلة المذكورة، وردَّها كما تقدم، ورجَّح الرواية التي فيها: إنها ماتت في حياة النبي ﷺ لأنها مرسلة، وراويها «علي بن زبير»، وهو ابن جُدْعان، ضعيف.

قلت: ـ ابن حَجَر ـ وأما دعوى من قال: إنها ماتت سنة أربع أو خمس أو ست، فيردها ما أخرجه «الزبير بن بكار»، عن إبراهيم بن حمزة الزبيري، عن ابن عيينة، عن علي بن زيد: أن «عبد الرحمٰن بن أبي بكر» خرج في فتية من قريش

قبل الفتح إلى النبي ﷺ، وكذا قال «محمد بن سعد»: إن أول إسلامه كان في صلح الحديبية، وكان أول الصلح في ذي القعدة سنة ست بلا خلاف، والفتح كان في رمضان سنة ثمان.

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي عثمان النهدي، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر ـ أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء ـ فذكر الحديث في قصة أضياف «أبي بكر»، قال «عبد الرحمٰن»: وإنما هو أنا وأمي وامرأتي وخادم بيتنا، وفي بعض طرقه عند «البخاري» في كتاب «الأدب»: فلما جاء «أبو بكر» قالت له أمي: احتبست عن أضيافك، و«أم عبد الرحمٰن» هي «أم رومان» بلا خلاف، وإسلام «عبد الرحمٰن» كان بين الحديبية والفتح كما نبهتُ عليه آنفاً، وهذه القصة كانت بعد إسلامه قطعاً، فلا يصح أن تكون ماتت في آخر سنة ست إلَّا إن كان «عبد الرحمٰن» أسلم قبل ذلك، وأقرب ما قيل في وفاتها من الوفاة النبوية، أنها كانت في ذي الحجة سنة ست، والحديبية كانت في ذي القعدة سنة ست، وقدوم «عبد الرحمٰن» بعد ذي الحجة سنة ست، فإن ادُّعِيَ أن الرجوع من الحديبية، وقصّة الجفنة المذكورة، وقدوم «عبد الرحمٰن بن أبي بكر» ووفاة «أم رومان» كان الجميع في ذي الحجة سنة ست كان ذلك في غاية البعد.

ووقفتُ ـ أي: ابن حجر ـ على قصة أخرى تدل على تأخر وفاة «أم رومان» عن سنة ست، بل عن سنة سبع، بل عن سنة ثمان، ففي مسند الإمام أحمد من طريق أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، فقال: **«يا عائشة! إني عارض عليك أمراً فلا تفتاتي فيه بشيءٍ، حتى تعرضيه على أبويك: أبي بكر وأم رومان»**.

قالت: يا رسول الله! وما هو؟ قال: **قال الله** ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب، الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٢٩].

قالت: قلت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر في ذلك «أبا بكر» ولا «أم رومان» فضحك. وسنده جيد، وأصل القصة في الصحيحين، من طريق أخرى، عن أم سلمة، والتخيير كان في سنة تسع، والحديث مُصَرِّح بأن

«أم رومان» كانت موجودة حينئذٍ، وقد أمعنتُ في هذا الموضوع في مقدمة «فتح الباري» في الفصل المشتمل على الرد على من ادعى في بعض ما في الصحيح علة قدحة، ولله الحمد، فلقد تلقى هذا التعليل لحديث «أم رومان» بالانقطاع ، عن «الخطيب» من العلماء، وقلدوه في ذلك، وعُذرهم وا ، ولكن فتح الله ببيان صحة ما في الصحيح، وبيان خَطَإٍ من قال: إنها ماتت سنة ست.

وقيل غير ذلك، وأول من فتح هذا الباب صاحب الصحيح كما ذكره أولاً، فإنه رجَّح رواية «مسروق» على رواية «علي بن زيد»، وهو كما قال، لأن «مسروقاً» متفق على ثقته، و«علي بن زيد» متفق على سوء حفظه، ثم وجدتُ للخطيب سَلَفاً، فذكر «أبو علي بن السكن» في كتاب «الصحابة»، في ترجمة «أم رومان» أنها ماتت في حياة النبي ﷺ، قال: وروى حُصَيْن، عن أبي وائل، عن مسروق، قال: سألت «أم رومان»، قال «ابن السكن»: هذا خطأ، ثم ساق بسنده إلى «حصين» عن «أبي وائل» عن «مسروق» أن «أم رومان» حدثتهم. . . ـ فذكر قصة الإفك التي أوردها «البخاري»، ثم قال: تفرد به «حصين».

ويقال: إن «مسروقاً» لم يسمع من «أم رومان» لأنها ماتت في حياة النبي ﷺ، وبالله التوفيق)[1].

وهكذا رحلت المؤمنة الصابرة، والمبايعة المهاجرة، عن الدار الفانية، إلى الدار الباقية، رحلت الزوجة العاقلة، والمربية الفاضلة، رحلت «أم رومان»، لتلقى صواحبها من حور الجنان، مشيعة بدعوات النبي المصطفى العدنان، لها بالرحمة والغفران، وقد ألهمتني سيرة «أم رومان» العطرة هذه الأبيات:

يا أم رومان عليك سلامُ ... وسقى ضريحك وابلٌ سَجَّامُ
ألقى «أبو بكر» لديك مسوَّدةً ... ورعايةً حارت بها الأفهامُ
قد كنتِ معواناً له في دينه ... حتى نما وترعرع الإسلامُ
ومنحتِه فخر البنات فأدركتْ ... فضلاً كمثله لم ير الأنَامُ
يا أم عائشة التي نقلت لنا ... خير الهدى ما كَرَّتِ الأيامُ

(١) الإصابة (٤/ ٢٦٩٢ ـ ٢٦٩٤).

عن زوجها المختار أكرم مرسَلٍ ... وأحب من يزجى إليه غرامُ
ما كنت أحسَبُ أن تشبَّه غادةٌ ... بالحور حتى جاءني إعلامُ
عَمَّنْ غدا لحديث أحمَد راوياً ... من غير أن ترقى له الأوهامُ
فبهن شَبَّهك النبي ولم يكن ... يُلْقَى جزافاً من لدنه كلامُ
بل كان وحياً قوله لا عن هَوًى ... أوحى به المتفضِّل العَلاَّمُ
مَنْ أشبهت حور الجنان بحسنها ... جاءت غداة الحَشْرِ وَهْيَ إمامُ
تتقدم الملأَ الحسانَ فخورةً ... بجليل ما أعطى لها القسامُ
فَلْيَهْنكِ الفضلُ الذي نُوِّلْتِهِ ... بأحبِّ بُشْرى تُبْتَغَى وتُرَامُ
يا زوج أوفى صاحب ومصدِّقٍ ... للمصطفى إذ أنكر الأقوامُ
ما قال عن إسرائه وعروجه ... في ساعة تكبو بها الأقدامُ
وتزيغ عن ذكر الحقيقة أنفسٌ ... سيئت بها وعلا الرؤوسَ رَغَامُ
إلَّا رفيقَ الغار جاء مُصَدِّقاً ... ما قد رواه الصادق المِقْدامُ
يا عِتْرَةَ الصِّدِّيقِ أشهد أنكم ... حُزْتم سنامَ المجد حيث يُرَامُ
فغدوتُمُ بعد النبي وآله ... أغلى الأحبة لو درى الهُيَّامُ
ولئن شفعتم بي إلى خير الورى ... فعسى يعمُّني بَرْدُه وسلامُ
وتنالني مرضاةُ أكرمِ منعمٍ ... لا مُبْتَغَى من غيره الإنعامُ[1]

ثالثاً: وتزوج الصحابية اللبيبة الفذَّة «أسماء بنت عميس» ـ رضي الله تعالى عنها ـ وقد اختلف أصحاب السير في نسبها، قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: «أسماء بنت عميس بن معد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن بشر بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن خلف بن أقبل»، وهو جماعة خثعم بن أنمار على الاختلاف في أنمار هذا، وقيل: «أسماء بنت عميس بن مالك بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن زيد بن بشر بن وهب الله» الخثعمية، من خثعم.

وأمها: «هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن كنانة»، وهي أخت «ميمونة» زوج النبي ﷺ، وأخت «لبابة» أم الفضل زوجة «العباس» وأخت أخواتها، فأسماء وأختها «سلمى» وأختها «سلامة» الخثعميات هن أخوات

(١) القصيدة للشاعر محمد راجي حسن كناس.

«ميمونة» لأم، وهنّ تسع، وقيل: عشر أخوات لأم، وست لأب وأم[١].

أسلمت «أسماء» وزوجها «جعفر بن أبي طالب» وبايعت، ثم خرجا مع المهاجرين إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى قريش وطغيانها مخافة أن تفتنهم عن دينهم، وكان «جعفر» ﷺ المتحدث باسم المهاجرين أمام (النجاشي) حين دعاهم، ليسألهم عن سبب لجوئهم إلى بلاده، وإيثاره على غيره، فلما علم حقيقة أمرهم أكرمهم غاية الإكرام، وأقاموا عنده في أحسن جوار، وعلى أرض الحبشة أنجبت «أسماء» لزوجها ثلاثة ذكور: «عبد الله بن جعفر» و«محمد بن جعفر» و«عون بن جعفر».

ولما عادت «أسماء» وزوجها «جعفر» وبنوهم مع المهاجرين من الحبشة، كان رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة، فلحقوا به، حتى إذا وصلوا المدينة، كان رسول الله ﷺ والمسلمون قد خرجوا لفتح خيبر، فانطلقوا إلى خيبر، وعند وصولهم كان الله قد فتحها على رسول الله ﷺ، فلما رأى رسول الله ﷺ «جَعْفَراً» التزمه ـ اعتنقه وضمَّه إليه ـ وقبَّل ما بين عينيه، وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أَسَرُّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**».

وكان ﷺ يقول له: «**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**»[٢].

وبعد أن قضى رسول الله ﷺ والمسلمون عائدين إلى المدينة من خيبر، أقام بالمدينة شهري ربيع، ثم بعث في جمادى الأولى بعثه إلى «مؤتة» بالشام.

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه حديث «أبي قتادة» فارس رسول الله ﷺ، قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، فقال: «**عليكم «زيد بن حارثة» فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب «جعفر» فعبد الله بن رواحة**»، فوثب «جعفر» فقال: يا رسول الله ما كنت أذهب أن تستعمل «زيداً» عليَّ! قال: «**امضِ، فإنك لا تدري أي ذلك خير**»[٣]!.

وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وجيش الروم مائة ألف، وانضم إليهم

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٧٨٤).
(٢) مسند الإمام أحمد رقم (١٨٢٣٨).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤٠ ـ ٤١).

مائة ألف من المستعربة، مما جعل القتال غير متكافىء، واقتحم «زيد» براية رسول الله ﷺ صفوف العدو، فتناوشه القوم برماحهم فسقط شهيداً، فتناول الراية «جعفر» وقاتل فجاءته ضربة سيف أطاحت بيمينه، ثم تلقى ضربة أخرى أطارت شماله، حتى إذا ألحمه القتال اخترطته السيوف وسقط شهيداً، وهَبَّ «عبد الله بن رواحة» فانتزع الراية من بين عضديْ «جعفر» ثم اقتحم وهو ينشد:

يا نفس إلَّا تقتَلي تموتي ... هذا حمامُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُدِيتِ

ثم لم يلبث أن لحق بأخويه «زيد» و«جعفر» رحمهم الله تعالى.

وجاء الوحي رسول الله ﷺ بالخبر، فصعِد رسول الله ﷺ منبره في المدينة، وأمر فنودي: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله ﷺ فأخبرهم بما جرى للأمراء الثلاثة، وشهد لهم بالشهادة واستغفر لهم، ولكن كيف علمت «أسماء» باستشهاد «جعفر»؟.

روى الإمام أحمد، عن أم عيسى الجزار، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب، عن جدتها «أسماء بنت عميس»، قالت:

لما أصيب «جعفر» وأصحابه دخلتُ على رسول الله ﷺ، وقد دبغتُ أربعين منيئة[1]، وعجنتُ عجيني، وغسَّلتُ بَنِيَّ ودهَنْتُهم ونظَّفْتُهم، فقال رسول الله ﷺ: **«ائتيني ببني جعفر»**.

قالت: فأتيته بهم فشمَّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! ما يبكيك؟ أبلغك عن «جعفر» وأصحابه شيء؟

قال: **«نعم، أصيبوا هذا اليوم»**، قالت: فقمتُ أصيح واجتمع إليَّ النساء. وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: **«لا تُغْفِلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغِلُوا بأمر صاحبهم»**[2].

ودخل النساء على «أسماء» يهدئن من روعها وجزعها، فجعل رسول الله ﷺ

(١) في رواية: أربعين إهاباً ـ جلداً ـ من أُدُم، جمع: أديم، وهو الجلد.
(٢) مسند أحمد (٢٥٨٣٩).

يقول: «**يا أسماء! لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً**»، ثم قال: «**تَسَلَّبي ثلاثاً**، ـ أي: البسي السِّلاَبَ، وهو ثوب الحداد، سواء أكان أبيض أم أسود ـ **ثم اصنعي ما شئت**»، ودخل رسول الله ﷺ على ابنته «فاطمة الزهراء»، وهي تندب «جعفراً»، وتقول: واعَمَّاه! فقال رسول الله ﷺ: «**على مثل جعفرٍ فلتبكِ الباكية**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا لآل جعفرٍ طعاماً، فإنه قد أتاهم أمر شغلهم**»[١].

وأخلدت «أسماء» إلى عِدَّتها، وكان «أبو بكر الصديق» ﷺ قد ماتت عنه امرأته «أم رومان»، فأرسل إلى «أسماء بنت عميس» من يذكرها عليه، ومثلُ «أبي بكر» لا يُرَدُّ، فإن مكارمه أكثر من أن تُعَدَّ.

وأخرج «ابن حجر» في «الإصابة» عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث، عن سعد بن أبي هلال، وقال: إن النبي ﷺ زَوَّج «أبا بكر»، «أسماء بنت عميس» يوم حنين، أخرجه عمر بن شَبَّة في كتاب «مكة»، وهو مرسل جيد الإسناد[٢]، وتحوَّلت «أسماء» مع بنيها إلى بيت «الصديق» أولِ من اكتحلت عيناه بنور الإيمان، فمنحها وأبناءها كل ما لديه من الحب والحنان، فخرج بها إلى حجة الوداع، وهي حامل، حتى إذا كانا بالبيداء وضعت ولدها «محمد بن أبي بكر الصديق» فأخبر «أبو بكر» رسول الله ﷺ، فقال: «**مُرْهَا فَلْتَغْتَسِلْ ثم لْتُهِلَّ**»[٣].

وحَصَلَتْ «أسماء» من رسول الله ﷺ على عدد من الأوسمة والدعوات الطيبات والمباركات، في عدد من المناسبات.

فقد روى الإمام البخاري في صحيحه، حدثني محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، حدثنا يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى ﷺ، قال: بَلَغَنَا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما «أبو بُرْدَة» والآخر «أبو رُهْم»، إما قال: في بِضْعٍ، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو: اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى «النجاشي» بالحبشة، فوافَقْنَا «جعفر بن أبي طالب» فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافَقْنَا النبي ﷺ حين افتتح خيبر.

---

(١) أبو داود في الجنائز (٢٧٢٥).
(٢) الإصابة (٤/٢٤١٧).
(٣) النسائي (٢٦١٥)

وكان أناسٌ من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: سبقناكم بالهجرة، ودخلت «أسماء بنت عميس»، وهي مِمَّنْ قدم معنا، على «حفصة» زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى «النجاشي» فيمن هاجر، فدخل «عمر» على «حفصة»، و«أسماء» عندها، فقال «عمر» حين رأى «أسماء»: من هذه؟ قالت: «أسماء بنت عميس»، قال «عمر»: آلحبشيةُ هذه؟ آلبحريةُ هذه؟ قالت «أسماء»: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويَعِظُ جاهلكم، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وَايْمُ الله! لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى ونَخَافُ، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله! لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي ﷺ، قالت: يا نبي الله! إن «عمر» قال: كذا وكذا، قال: «**فما قلت له؟**»، قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: «**ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم ـ أَهلَ السفينة ـ هجرتان**».

قالت: فلقد رأيت «أبا موسى» وأصحابَ السفينة يأتونني أرسالاً، يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قال «أبو بُرْدَة»: قالت «أسماء»: فلقد رأيتُ «أبا موسى» وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[1].

أما رواية الإمام مسلم فقد جاء فيها: حدثنا عبد الله بن بَرَّاد الأشعريُّ، ومحمد بن العلاء الهَمْدانيُّ، قالا: حدثنا أبو أُسامة، حدثني بُرَيْدٌ عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى، قال: بلغنا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لي، أنا أصغرهما، ـ هكذا في النسخ، والوجه أصغر منهما ـ، أحدهما «أبو بُرْدة» والآخر «أبو رُهْم» ـ إما قال: بضعاً، وإما قال: ثلاثاً وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ـ قال: فركبنا سفينةً، فألقتنا سفينتُنا

(١) صحيح البخاري (٣٩٩٠/ ٣٩٩٢).

إلى «النجاشي» بالحبشة، فوافَقْنا «جعفرَ بن أبي طالب» وأصحابَه عنده، فقال «جعفرٌ»: إن رسول الله ﷺ بعثنا هٰهُنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً.

قال: فوافَقْنَا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً، إلَّا لمن شهد معه، إلَّا لأصحاب سفينتنا مع «جعفرٍ» وأصحابه، قسم لهم معهم.

قال: فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة.

قال: فدخلت «أسماء بنت عميس»، وهي ممن قدم معنا، على «حفصة» زوج النبي ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى «النجاشي» فيمن هاجر إليه، فدخل «عمر» على «حفصة»، و«أسماء» عندها، فقال «عمر» حين رأى «أسماءَ»: مَنْ هذه؟ قالت: «أسماء بنت عميس».

قال «عمر»: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت «أسماء»: نعم. فقال «عمر»: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت كلمةً: كذبت[1]، يا «عمر!» كلا، والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويَعِظُ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض، البُعَدَاء البُغَضَاء[2] في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايْمُ الله! لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى ونُخَافُ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وأسأله، ووالله! لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك.

قال: فلما جاء النبي ﷺ، قالت: يا نبي الله! إن «عمر» قال: كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: **«ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم، أهلَ السفينة، هجرتان»**.

قالت: فلقد رأيتُ «أبا موسى» وأصحابَ السفينة يأتوني أرسالاً ـ أفواجاً ـ،

---

(١) تقول العرب: كَذَبْتَ، وتعني: أخطأتَ.

(٢) قال العلماء: البعداء في النسب، البغضاء في الدين، لأنهم كفار إلَّا «النجاشي»، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ويُوَرِّي لهم.

يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ.

قال «أبو بُرْدة»: فقالت «أسماء»: فلقد رأيت «أبا موسى»، وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[1].

وما أحسن قوله وتوجيهه لها ﷺ حين نعي لها زوجها «جعفر»: «**يا أسماء! لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً**» وذلك حرصاً منه ﷺ على ألاَّ تفعل شيئاً من أفعال الجاهلية التي منعها الإسلام، فتقع في الإثم من حيث لا تريد ذلك، ولا يخطر لها على بال.

وليلة زفاف «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه على «فاطمة» رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ سواداً وراء الباب، فقال: «من هذا؟» قالت: «أسماء»، قال: «**أسماء بنت عميس**»؟ قالت: نعم، أبغي بنت رسول الله ﷺ، قال: «**جئت كرامة لرسول الله ﷺ؟**» قالت: نعم، فدعا لي دعاء إنه لأوثق عملي عندي[2].

ومن مناقب «أسماء بنت عميس» وصية السيدة «فاطمة الزهراء» بنت رسول الله ﷺ إليها، فقد روى المحب الطبري في ذخائره: عن أم أبي جعفر أن «فاطمة» عليها السلام قالت «لأسماء بنت عميس»: يا أسماء! إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها.

وقالت «أسماء»: يابْنَة رسول الله! ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة ـ أي سَعَف النخيل وورقه ـ فَحَنَتْها، ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت «فاطمة»: ما أحسن هذا وأجمله! تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت و«عليٌّ» ولا يدخل عليَّ أحد.

فلما توفيت جاءت «عائشة» رضي الله عنها تدخل، فقالت «أسماء»: لا تدخلي، فشكت إلى «أبي بكر»، قالت: إن هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ، وقد جعلت لها مثل هودج العروس، فجاء «أبو بكر»، فوقف على

---

(١) صحيح مسلم (١٦٩/ ٢٥٠٢ ـ ٢٥٠٣).

(٢) انظر ذخائر العقبى للمحب الطبري، ص: ٢٨.

الباب، فقال: يا أسماء! ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ يدخلن على بنت رسول الله ﷺ، وجعلت لها مثل العروس؟ فقالت: أمرتني ألَّا يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية، فأمرتني أن أصنع ذلك لها، قال «أبو بكر»: اصنعي ما أَمَرَتْكِ، ثم انصرف، وغسَّلها «عليٌّ» و«أسماء»، خرجه «أبو عمر» وخرج الدولابي معناه مختصراً، وذكر أنها لما أرتها النعش تبسَّمت، وما رئيت مبتسمة ـ يعني بعد النبي ﷺ ـ إلى يومئذ[١].

ولم يكن أحد يعلم ـ إلا الله ـ أن «علياً» سينكح «أسماء» بعد «الزهراء»، ﷻ فسبحان عَلَّام الغيوب! ما أوسع علمه! وما أجهل عباده بقَدْره!.

وكانت «أسماء» شديدة الذكاء، مراعية لحقوق ربها، ملتزمة بوصايا نبيها، مطيعة لزوجها، حريصة على تربية بنيها وفق تعاليم الدين الحنيف، راوية للحديث النبوي الشريف، وكانت من العابدات القانتات، فنهارها للصيام، وليلها للقيام، وقد أمرها «أبو بكر» ﷺ بالفطر إذا حضرته الوفاة، وألَّا يغسِّلَه سواها، وما كانت تلك المرأة الفذة لتخالف آخر رغبة لأمير المؤمنين، عليه رحمة رب العالمين.

ولما مات أنفذت وصيته، واستسلمت لقضاء الله، وقضت أيام عدتها، في عبادتها، ورعاية بني «جعفر» الثلاثة، ووحيدها من شيخ المسلمين أبي بكر الصديق ﷺ.

وكانت مناقب «أسماء» بادية لكل ذي عينين، وقد أراد «أبو الريحانتين» ووالد «الحسنين» أن يخرجها من وحدتها، ويخلِّصها من عزلتها، فسارع إلى خطبتها، وتم الزواج.

انتقلت «أسماء» مع بني «جعفر»، ووحيد «الصديق» إلى دار فارس الإسلام، وبطله الهمام، فلقيت فيها مع أبنائها خير رعاية، وأكرم عناية، وأعظم تقدير، وقد نقل «ابن حَجَر» في «الإصابة» عن «ابن سعد» صاحب «الطبقات» عن الواقدي أنها ولدت لعلي «عوناً» و«يحيى»[٢]، ومن المعلوم أن «عوناً» أحد أبنائها

(١) ذخائر العقبى، ص: ٥٣.
(٢) الإصابة (٤/٢٤١٧).

الثلاثة من «جعفر بن أبي طالب» ـ ﷺ ـ، ولا يعرف على وجه الدقة ما إذا كان لها ولدان باسم «عون» وواحد من «جعفر» والآخر من «علي» ﷺ.

وإن عمر «محمد بن أبي بكر» يوم وفاة أبيه ثلاث سنين، ولما آل الأمر إلى «علي بن أبي طالب» بعد مقتل «عثمان» ﷺ ولَّى عليٌّ «مقاليد مصر» إلى «محمد بن أبي بكر» وكان «معاوية» قد حمَّله تبعة قتل «عثمان»، فأرسل جيشاً يقوده «عمرو بن العاص» لإخراج «ابن أبي بكر» من مصر، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وانفضَّ عن «محمد بن أبي بكر» أعوانه، فتصدى لعمرو ومن معه، وجرت بينهما رسائل ذكرها «ابن جرير الطبري في تاريخه (٥/ ٩٤ ـ ١٠٥) لا مجال لإيرادها هٰهُنا، وقاتلهم» «محمد» حتى قتل، وذكر «ابن حَجَر» في «الإصابة» أن أمه «أسماء بنت عميس» لما بلغها مقتل ولدها «محمد» بمصر، قامت إلى مسجد بيتها، وكظمت غيظها، حتى شخب ثدياها دماً[1]، ثم ماتت رحمها الله تعالى.

وفي سنة أربعين، قتل «علي بن أبي طالب» على يد أشقى الآخرين، «عبد الرحمٰن بن ملجم» عليه لعنة الله تعالى إلى يوم الدين.

رابعاً: وكانت «حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير»، آخر من تزَوَّج «أبو بكر» ﷺ، وتوفي عنها وهي حامل، وبعد وفاته وضعت جارية أسمتها «أم كلثوم»[2].

وقد أخرج «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، عن عائشة ﷺ قالت: كان منزل أبي بالسُّنْحِ عند زوجته «حبيبة ابْنَة خارجة بن زيد بن أبي زهير» من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حَجَّر عليه حجرة من سَعَف، فما زاد على ذلك حتى تحوَّل إلى منزله بالمدينة؛ فأقام هنالك بالسُّنْح بعدما بويع له ستة أشهر، يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء مُمَشَّق ـ فيه شقوق ـ، فيوافي المدينة، فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء، رجع إلى أهله بالسُّنْح، فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم

(١) الإصابة (٤/ ٢٤١٧).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٦).

«عمر بن الخطاب».

قال: فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لَقَدر الجمعة، فيجمِّع بالناس، وكان رجلاً تاجراً، فكان يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربَّما خرج هو بنفسه فيها، وربَّما كُفِيَها فَرُعِيَتْ له، وكان يحلب للحي أغنا ، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحي: الآن لا تُحْلَب لنا منائح دارنا، فسمعها «أبو بكر ، فقال: بلى، لعمري لأحلَبَنَّها لكم؛ وإني لأرجو أَلَّا يغيرني ما دخلتُ فيه عن خُلُقٍ كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربَّما قال للجارية من الحي: يا جارية! أتحبين أن أرعى لك، وأصرِّح؟ ـ أخلِّص من الشوائب ـ، فربَّما قالت: ارْعَ، وربَّما قالت: صَرِّح، فأي ذلك قالته فعل؛ فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أ ، ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله! ما تُصْلِحُ أمورَ الناس التجارةُ، وما يُصْلِحُهم إلَّا التفرغ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيالي مما يُصْلِحُهم، فترك التجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يُصْلِحُه ويُصْلِحُ عياله يوماً بيوم، ويحج ويعتمر، وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستَّة آلاف درهم.

فلما حضرته الو ، قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبتُ من أموا ، فدفع ذلك إلى «عمر»، ولقوحاً، وعبداً صَيْقَلاً ـ أي: يجلو السيوف ويشحذها ـ وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال «عمر»: لقد أتعب من بعدَه.

وقال علي بن محمد ـ فيما حدثني أبو زيد عنه في حديثه عن القوم الذين ذكرتُ روايته عنهم ـ قال «أبو بكر»: انظروا كم أنفقت منذُ وُلِّيتُ من بيت المال فاقضوه عني، فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته.

وعن ابن إسحاق، عن الزهر ، عن القاسم بن محمد، عن أسماء بْنَةِ عميس، قالت: دخل «طلحة بن عبيد الله» على «أبي بكر» فقال: استخلفت على الناس «عمر»، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه؛ فكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاقٍ ربك، فسألك عن رعيتك.

فقال «أبو بكر» وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله

تفرِّقُني؟ ـ أو أبالله تخوفني؟ ـ إذا لقيت ربي فساءلني، قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك[١].

تلكم هي بعض النفحات العطرة عن رجل باع نفسه لله، وكان في علانيته وسره يخشاه، ضمنتها بعض اللمحات عن أزواجه وأولاده، ولعل فيها بعض العظات والعِبَر، لمن أمعن فيها النظر، والله أحمد على معونتي، وهو قصدي ورضاه غايتي.

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).